

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة باتنة 1 الحاج لخضر
كلية العلوم الإسلامية
قسم اللغة والحضارة الإسلامية
مخبر العلوم الإسلامية

الملتقى الوطني حول:

مناهج البحث العلمي في العلوم الإسلامية والإنسانية

الاسم واللقب: إدريس بن مجدوب.

الرتبة العلمية: دكتوراه - دراسات حديثة معاصرة.

المؤسسة الأصلية: جامعة الوادي.

البريد الإلكتروني: idriss81benmedjdoub@gmail.com

محور المشاركة:

المحور الثاني: المناهج والمجالات البحثية العلمية في العلوم الإسلامية والإنسانية.

عنوان المداخلة:

منهج البحث العلمي عند المحدثين من خلال الرد على طعونات المستشرقين وأضرابهم في السنة النبوية.

المداخلة:

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فمن نعم الله على المسلمين أن حفظ عليهم سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فوقق لها حفاظا عارفين، وجهابذة عالمين، وصيارفة ناقدين، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ففرغوا لها، وأفنوا أعمارهم في تحصيلها وتنقيتها.

وقد خَلف لنا هؤلاء الأئمة الحفاظ ثروة علمية زاخرة من تأمل في فنونها وعلومها المختلفة عِلْم الجهد الشاق، والصبر الطويل، الذي بذله المحدثون في جمعها، وروايتها، وتمييز ضعيفها من سقيمها، وبذل الغالي والنفيس في سبيل ذلك. ورغم كل هذه الجهود المبذولة، وكل النتائج التي توصلوا إليها إلا أنهم قوبلوا بانتقادات كثيرة من المستشرقين ومن تأثر بهم من المستغربين، وزعموا أن المنهجية التي اعتمدها المحدثون في بحوثهم غير علمية. فانبرى لهؤلاء المستشرقين عدد من العلماء والباحثين المسلمين فكتبوا ردودا كثيرة على آرائهم وبحوثهم. فمن خلال هذه الردود:

الإشكالية:

- ما هو المنهج الذي اتبعه المحدثون لمعرفة صحيح الحديث وضعيفه، وإلى أي مدى كان منهجهم في البحث منهاجا علميا تطمئن إلى نتائجه النفوس وتخضع له العقول؟
- كيف تمكن النقاد من الحكم على الأحاديث فهل كانوا يستندون في أحكامهم على حقائق ومناهج علمية ثابتة أو هو ضرب من الخيال؟
- هل كانت قواعد المحدثين مبنية على أصول بحث علمية؟
- وهل يمكن أن يكون منهج المحدثين في حفظ السنة النبوية عرضة للنقد وإمكانية الاستدراك والتصحيح أم كان مبنيا على قواعد سليمة.
- ما مدى دقة النتائج التي توصل إليها المستشرقون، وهل اعتمدوا منهاجا علميا دقيقا للوصول إليها؟
- ما العيوب المنهجية التي خالف فيها المستشرقون أصول منهج البحث العلمي وقواعده في كتاباتهم في السنة النبوية.

وللإجابة على هذه الإشكالية جاءت هذه المداخلة الموسومة بـ:

منهج البحث العلمي عند المحدثين من خلال الرد على طعونات المستشرقين وأضرابهم في السنة النبوية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث فيما يلي:

- أبرز ما يتشدد به المستشرقون هو تمسكهم بالمنهج العلمي الدقيق في بحوثهم، وعليه يكون أفضل رد عليهم هو بيان تجاوزهم لأصول المنهج العلمي المتعارف عليها، سواء عند المسلمين أو عند غيرهم، مع إبراز ذلك بصورة جلية.

خطة البحث:

تتكون خطة هذا البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة:

المبحث الأول: منهج البحث والنقد عند المحدثين نشأته ودوافعه وميزاته.

المبحث الثاني: شبهات المستشرقين حول منهج النقد عند المحدثين والرد عليها وميزات منهج كل فريق.

تعريف النقد الحديثي:

هو تمحيص الروايات الحديثية والتمييز بين المقبول والمردود منها من خلال التمييز بين أحوال الرواة جرحاً وتعديلاً، ومن خلال السند اتصالاً وانقطاعاً، ومن خلال الواقع إصابة وتخطئة¹

شروط الناقد:

يقول المعلمي: فإن الناقد لا بد أن يكون واسع الاطلاع على الاخبار المروية، عارفاً بأحوال الرواة السابقين وطرق الرواية، خبيراً بعوائد الرواة ومقاصدهم واغراضهم، وبالأسباب الداعية إلى التساهل والكذب، والموقعة في الخطأ والغلط، ثم يحتاج إلى أن يعرف أحوال الراوى متى ولد؟ وبأى بلد؟ وكيف هو في الدين والأمانة والعقل والمروءة والتحفظ؟ ومتى شرع في الطلب؟ ومتى سمع؟ وكيف سمع؟ ومع من سمع؟ وكيف كتابه؟ ثم يعرف أحوال الشيوخ الذين يحدث عنهم وبلدانهم ووفياتهم وأوقات تحديثهم وعادتهم في التحديث، ثم يعرف مرويات الناس عنهم ويعرض عليها مرويات هذا الراوى ويعتبرها بها، إلى غير ذلك مما يطول شرحه، ويكون مع ذلك متيقظاً، مرهف الفهم، دقيق الفطنة، مالكا لنفسه، لا يستميله الهوى ولا يستفزه الغضب، ولا يستخفه بادر ظن حتى يستوفى النظر ويبلغ المقر، ثم يحسن التطبيق في حكمه فلا يجاوز ولا يقصر. وهذه المرتبة بعيدة المرام عزيزة المنال لم يبلغها إلا الأفاضل. وقد كان من أكابر المحدثين وأجلتهم من يتكلم في الرواة فلا يعول عليه ولا يلتفت إليه.

قال الإمام على ابن المدينى -وهو من أئمة هذا الشأن-: أبو نعيم وعفان صدوقان لا أقبل كلامهما في الرجال، هؤلاء لا يدعون أحداً إلا وقعوا فيه). وأبو نعيم وعفان من الأجلة، والكلمة المذكورة تدل على كثرة كلامهما في الرجال ومع ذلك لا تكاد تجد في كتب الفن نقل شئ من كلامهما².

نشأة النقد³:

البحث والتنقيب في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ في حياته، وكان ذلك على نطاق ضيق جداً، إذ أن الصحابة ما كانوا يكذبون، بل كان غاية البحث في ذلك الوقت هو التدقيق، بل هو نوع من التوثيق للطمأنينة القلبية. أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من اثنتين، فقال له ذو اليمين: أقصرت الصلاة، أم نسيت يا رسول الله؟ فقال رسول الله

¹ محاضرات في منهج النقد، د. حميد قوفي، ص9.

² مقدمة المعلمي لكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ص: (ب)،

(ج).

³ ينظر:

- منهج النقد عند المحدثين نشأته وتاريخه، د. محمد مصطفى الأعظمي، مكتبة الكوثر، ط3/1410هـ، ص:1 وما بعدها.

- نقد المتن عند الإمام النسائي في السنن الكبرى، د. محمد مصلح الزعبي، أمواج -عمان، ط1/2012، ص 77 وما بعدها.

صلى الله عليه وسلم: «أصدق ذو اليمين» فقال الناس: نعم، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى اثنتين أخريين، ثم سلم، ثم كبر، فسجد مثل سجوده أو أطول. فقد تثبت النبي صلى الله عليه وسلم من قول ذي اليمين، ولم يقبل قوله من غير استيثاق، ولم يكن مكذبا له، وإنما استغرب هذا السؤال منه وحده، وفي القوم أبو بكر وعمر - كما في بعض الروايات-، ولما علم صدق ذي اليمين بالتحري، عمل بمقتضى قوله.

كما كان الصحابة في حياته صلى الله عليه وسلم يتثبتون في الأخبار، فكانوا قد يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم حين يبلغهم عنه الحديث للتثبت والتوثيق والطمأنينة.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم نشط النقد والبحث حول السنة وخطا خطوة أوسع نحو الاستيثاق والتحقيق، وأصبح الأمر أكثر ضرورة، وأكثر احتياطا وتثباتا حتى يتبين المسلمون أن ما يُروى لهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا زيف فيه ولا خلط، ولا افتراء فيه ولا كذب، وكان لابد من اللجوء إلى أساليب جديدة في التحري والتدقيق، نظرا لزيادة الحاجة لذلك، ومن هنا ظهرت شخصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ليوضح منهج البحث والنقد السليم من حول السنة. قال عنه الذهبي: وهو أول من احتاط في قبول الأخبار.

وهو الذي دلنا على أهم قاعدة للنقد والتدقيق، وهي المقارنة بين الروايات. ثم جاء دور عمر، وهو الفاروق الأعظم الذي نزل القرآن بموافقة مرارا، فأرسي قواعد جديدة للبحث والنقد والتدقيق.

قال ابن حبان: إن عمر وعلياً أول من فتشا عن الرجال في الرواية، وبحثا عن النقل في الأخبار، ثم تبعهم ناس على ذلك.

وبعد انقضاء عصر الصحابة، وابتداء عصر التابعين ازدادت الحاجة للبحث نظرا لكثرة الرواة، وتعدد حلقات الإسناد، وظهور الفتن وانتشار الكذب وبروز حركة الوضع، مما دفع الأئمة النقاد لمزيد من الاهتمام بالأسانيد والبحث في أحوال الرواة، وعدوا الإسناد من الدين، قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يخذ حديثهم.

ومن هنا ظهرت الرحلة في طلب الحديث بشكل واضح، من أجل مقارنة المرويات، وعرض بعضها على بعض للوقوف على حقيقتها، وبيان حالها وبالتالي قبولها أو ردها، وقد برز عدد من النقاد الكبار في هذه المرحلة ممن كان لهم بصمات واضحة في علم البحث والنقد.

قال ابن حبان: ثم أخذ مسلكهم-يعني مسلك الصحابة- واستن بسنتهم واهتدى بهديهم فيما استنوا من التيقظ في الروايات جماعة من أهل المدينة من سادات التابعين منهم سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله... ثم أخذ عنهم العلم وتتبع الطرق وانتقاء الرجال، ورحل في جمع السنن جماعة بعدهم... إلا أن أكثرهم تيقظا وأوسعهم حفظا وأدومهم رحلة وأعلاهم همة الزهري رحمة الله عليه.

وبانقضاء عصر التابعين دخل البحث والنقد في طور جديد حيث أصبحت الحاجة إلى الرحلة في طلب العلم أكثر من أي وقت مضى، واعتبرها العلماء ضرورة من ضرورات العلم حتى قال ابن معين: أربعة لا تؤنس منهم رشدا...ورجل يكتب في بلده ولا يرتحل في طلب الحديث.

وبما أن الرحلة أصبحت من لوازم العلم فإن كل من جاء من النقاد والمحدثين بعد عصر التابعين استقى معلوماته -على الأغلب- من كافة المراكز العلمية بالعالم الإسلامي حينذاك، ولم يكن يقتصر على بلده إلا نادرا، ومن ثم لم يكن يقتصر كلام النقاد على رجال منطقة واحدة بعينها، بل كانوا يتكلمون على الرواة كافة بوجه عام، ومن ناحية أخرى فقد وجدت في هذه الفترة مدارس أخرى عديدة للنقد في مختلف الأقطار الإسلامية.

وهكذا بقي النقد في تطور مستمر، وأخذ أشكالا عديدة حتى وصل إلى ذروته في القرنين الثالث والرابع الهجري، حيث برز عدد من جهابذة النقاد كابن المديني وابن معين وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم... وغيرهم، وأصبح للنقد قواعد وضوابط وضعها أصحاب هذا الشأن لتكون منارة يهتدي بها النقاد من بعدهم، ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا تكلموا عنها.

دوافع البحث والنقد عند المحدثين⁴:

إن المتأمل لحركة النقد لدى أئمة الحديث يجدها لم تكن مجرد إشباع رغبة علمية، أو وسيلة للبروز والشهرة، أو طريق من طرق كسب رزق أو جاه، بل كانت هناك دوافع وغايات أعمق وأدق، من ذلك:

1- الغيرة على الدين، والحرص على السنة باعتبارها ثاني مصادر التشريع الإسلامي، وفيها الحلال والحرام.

2- ظهور الفتن ونزوع الناس إلى الابتداع واستحلال الكذب والوضع في الحديث وخاصة في أواخر عصر التابعين وما بعده.

3- ضعف ملكة الحفظ عند الكثيرين من الرواة، وهذا ما يحول دون ضبط الرواية، وهذا ما دفع النقاد إلى ضرورة التتبع لنقله الأخبار وخاصة في بدايات المائة الثانية وما بعدها.

4- كثرة الرواة والمرويات، وطول العهد بالرواة من الصحابة، الأمر الذي جعل تتبع الرواة وسبر المرويات من الضروريات اللازمة وخاصة في المائة الثالثة وما بعدها.

المنهاج العملي للتصحيح والتضعيف عند المحدثين⁵:

المنهاج العلمي للنقد عند المحدثين يتلخص في ثلاث بيانات:

البيان الأول: إن الغاية الأساسية عند المحدثين كانت معرفة صدق الراوي في الحديث موضوع البحث لا غير، بحيث إذا تبين لهم أنه صدق في نقله لذلك الحديث حكموا بصحته، والعكس بالعكس، لكن لما كان الوقوف على ذلك صعبا، والتأكد منه

⁴ دراسات في منهج النقد عند المحدثين، د. محمد علي قاسم العمري، دار النفائس - الأردن، ص 15.

⁵ المنهاج العلمي للتصحيح والتضعيف، د. محمد بنكيران، موقع: منصة محمد السادس للحديث الشريف.

في نقل الراوي متعذراً، لجأوا إلى اشتراط العدالة والضبط لكونهما أمانة على ذلك ووسيلة إليه ليس إلا، وبناء على ذلك لم يكن اشتراطهم لهاتين الصفتين باعتبارهما غاية، وإنما وسيلة فقط إلى غاية أساسية هي الأمن من وقوع الكذب في الحديث من الجهتين العمد والخطأ على السواء، ولهذا لما عُرف الصحابة بعدم الكذب جملة، وبعدهم في الحديث خاصة حكم المحدثون بعدالتهم جميعاً.

البيان الثاني: وهو متصل بهذا الأمر وله أهمية كبيرة، وفحواه أن نعرف أن تصحيح الحديث عملية دقيقة ومعقدة وشاملة، بحيث لا يمكن أن تجزأ فيها القضايا أو تفصل، ولا أن يعتبر فيها فقط حال الراوي وحده، أو حال المروي وحده، وذلك لأنها تقوم على جملة من القضايا والاعتبارات المتصلة ببعضها، والتي تخضع بموجبها كل الأحاديث والروايات للنظر والنقد، بحيث تبحث في ضوئها حتى أحاديث الثقات الكبار فتتكشف للناقد علل تجعل تلك الروايات مردودة غير مقبولة، وتبحث في المقابل أحاديث للمتكلم فيهم فتظهر صحتها وصوابهم فيها، وإنما تتم معرفة ذلك بفضل التبحر في هذا العلم واستقصاء الروايات وموازنتها، وبحث مدى صواب كل راو في حلقة الإسناد فيما نقله عن فوqe بهذه الطريقة التجزيئية التفصيلية، إذ ليس الحكم على الراوي بالثقة يعني بالضرورة قبول كل رواياته، كما أن التضعيف للراوي ليس حكماً على سائر رواياته بالرد وعدم القبول.

البيان الثالث: أن يكون النظر في الحديث من خلال زاويتين اثنتين:

الأولى: الإسناد، ونعني بها النقد الإسنادي الذي ينظر بمقتضاه في رجال السند، واتصال رواياتهم على أكثر من مستوى، وما إلى ذلك من الشروط المعروفة، كما ينظر في المتن لكن من زاوية الإسناد نفسه كما هو الحال في العلة والشذوذ من بعض النواحي.

والزاوية الثانية: هي المتن، الذي ينبغي النظر فيه من حيث موافقته للنصوص القطعية، والقواعد المقررة، ومقتضيات العقل والحس والتاريخ.. وبحث مدى موافقته أو شذوذه من هذه الناحية المغايرة للمذكورة أعلاه.

بعض ميزات منهج البحث عند المحدثين: منهج البحث عند المحدثين يمتاز بميزات منها⁶:

التوازن والاعتدال؛ وذلك لأنه منهج يقوم على الاستقراء والتتبع، وهو من ثم منهج واقعي، لا يمكن فصله عن أسبابه ومؤثراته.

والإطراد؛ فهو منهج مطرد، لا يمكن لمنصف أن يرميه بالتناقض، أو الانتقائية، أو نحو ذلك من الأوصاف، فأهل الحديث ونقاده انطلقوا في قبولهم للرواة جرحاً أو تعديلاً من أسس ومعايير منها: المنهج الاستقرائي، ومنهج المقارنة، ومنهج الجدل العلمي، وإعمال العقل في نقد المرويات، والانطلاق من الشك المنهجي، وهذا مما يدل على إبداع المحدثين وتميزهم في إنتاجهم لقانون نقدي دقيق، طُبق على كل المرويات للتحقق منها قبولاً أو رداً، وهذا لم يسبق إليه أحد قبلهم.

⁶ تكوين الملكة الحديثية معالم إرشادية وبرامج علمية، د. سامح عبد الله عبد القوي متولي، دار الأوراق- القاهرة، ص (60-59).

وفي هذا إبطال قول من يدعي بأن منهج المحدثين لا يخضع إلى المعايير النقدية والمعيارية للحكم على الرواة والمرويات، وأنه منهج صُيغ بوصف القداسة دون حق، وعليه فلا قيمة لتلك الأحكام على الرواة والمرويات، وأنه منهج غير منضبط، فهو محكوم بالأهواء.

وهذا الإشكال يقوم في أصله على محاولة عزل هذا العلم عن خلفيته وامتداده الشرعي؛ حتى يكون منهجا نظريا معرفيا كغيره من المناهج النظرية التي تقوم على التحليل والحدس، أو المناهج التجريبية التي تخضع للتجربة والاختبار. والحق أن هذه الرؤية بعيدة عن الإنصاف والموضوعية، فمن مارس هذا العلم وحقق في مسائله وقضاياه، أدرك أنه قائم على أدلة القرآن الكريم والسنة النبوية، فضلا عن اعتماده على قواعد شرعية وأدلة عقلية.

المبحث الثاني: شبهات المستشرقين حول منهج النقد عند المحدثين والرد عليها.

تعرضت السنة عموما ومنهج المحدثين في البحث -أي منهج النقد- خصوصا لطعون كثيرة قديما وحديثا، ومن أكثر الطاعنين حديثا المستشرقون، وتبعهم على ذلك من تأثر بهم من المستغربين، ولما كانت الطعون كثيرة والردود عليها طويلة لا يحتملها هذا المقام، يحسن أن يكون التركيز على ما يخص موضوع هذا الملتقى. وملخص الطعن أن: المنهجية التي اعتمدها المحدثون في نقد الحديث غير علمية. وهذا الطعن حول محورين:

المحور الأول: دعوى الاعتباطية في وضع الأسانيد، وأن الاهتمام بها نشأ في عصور متأخرة.

المحور الثاني: اتهام منهج المحدثين في النقد بالقصور والخلل، وأنهم اهتموا بنقد السند للتغطية على نقد المتن.

المطلب الأول: دعوى كون وضع الأسانيد اعتباطا

وهذه ثلاث ردود على هذه الدعوى.

الرد الأول: من بحث محمد إبراهيم محمد نور عبد اللطيف الخليفة على مطاعن المستشرقين، قال فيه⁷:

يقول شاخت: "إن أكبر جزء من أسانيد الأحاديث اعتباطي.... ومعلوم لدى الجميع أن الأسانيد بدأت بشكل بدائي، ووصلت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.. وكانت الأسانيد كثيرا لا تجد أقل اعتناء، وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين كان يختار تلك الشخصيات ويضعها في الإسناد"

فهو يرى أن الأسانيد الموجودة في الأحاديث النبوية ليس أسانيد لرجال حقيقيين، وإنما وضعت اعتباطا؛ ليصح نسبة تلك الأسانيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنها قيلت في ذلك الزمن، ثم يقول إن أي أحد كان يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين كان يعمد إلى أسماء تلك الشخصيات فيضعها في الإسناد لتصح النسبة إلى المتقدم،

⁷ آراء المستشرق جوزيف شاخت حول حجية السنة النبوية من خلال كتابه "أصول الشريعة المحمدية"، بحث مكمل لنيل درجة العالمية الماجستير، إعداد: محمد إبراهيم محمد نور عبد اللطيف الخليفة، إشراف: الدكتور عبد الله ضيف الله الرحيلي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1417هـ/1997م، ص101 وما بعدها.

فتصبح وكأنها من أقواله صلى الله عليه وسلم. ولتأكيد ما ذهب إليه من الحكم على الأحاديث النبوية بالوضع أراد الانتقال من جهود المحدثين في تنقية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فطعن في تلك المناهج التي وضعها العلماء لنقد السند والمتن، ولمعرفة الصحيح من السقيم في الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واتهمهم بالقصور، وأن المحدثين وجهوا اهتمامهم لنقد الأسانيد -الموضوعة في رأيه- للتغطية والتستر على نقد المتن- الموضوع أيضا في رأيه والمنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم- فإذا كل من الإسناد والمتن كذب في كذب -على حد رأيه- فالإسناد منسوب لأشخاص غير حقيقيين، والمتن أقوال لأشخاص زعموا أنها أقوال النبي صلى الله عليه وسلم والمتقدمين، هكذا يرى "شاخنت" حقيقة الأحاديث النبوية، وهكذا يطعن في منهج النقد عند المحدثين فيرميهم بالقصور والغش والخداع والتستر حيث يقول: ومن المهم أن نلاحظ أنهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للإسناد نفسه.

- دعوى الاعتبارية في وضع الأسانيد، وأن الاهتمام بها نشأ في عصور متأخرة. المناقشة:

إن هذا الزعم قد حاول " المستشرق شاخنت " إثباته، لكن الواقع يثبت خلاف ذلك، فقد كان الاهتمام بالأسانيد ديدن الصحابة رضي الله عنهم منذ عصر النبوة، لبل إن الوحي المنزل على نبينا عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، كلها روايات جبريل عن الله تعالى، ويرويها النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة، وهم نقلوها إلى من بعدهم، فإذا الإسناد والعزو كان سمة من سمات هذا الدين منذ نزوله.

ويمكن تلخيص الرد على هذه الدعوى في هذه النقاط:

- 1- اشتراط السند عند المحدثين في تلقي الحديث، دليل يرد هذه الدعوى.
- 2- دلالة علم العالي والنازل من علوم الحديث على أهمية السند في النقل عند المحدثين، واختلاف درجة الرواية باختلافه، وأنه واقع وليس مجرد اختراع خيالي.
- 3- نقد الأسانيد عندهم والموازنة بينها والحكم عليها، والتفريق بين الثابت وغير الثابت دليل على ذلك.
- 4- وجود الأسانيد في الكتب في نقل السنة على اختلاف طبقاتها، بحيث لا يعتد في عصر الرواية والتدوين بكتاب يجمع السنة بدون أسانيد.
- 5- مطابقة الأسانيد التي اشتملت عليها كتب الحديث من حيث الطول والقصر لقربها أو بعدها الزمني من عصر النبوة.
- 6- انطباق هذه الأسانيد على رجال حقيقيين معروفين.
- 7- روايتهم للمؤلفات في الحديث بالسند يدل على هذا أيضا.
- 8- وجود الكتب المتعددة المتخصصة في تراجم أولئك الرواة على اختلاف الطبقات والعصور، حيث أصبحت تراجمهم محفوظة حفظا وثائقيا، تتحطم عليه كثير من الشبهات المختلفة تجاه السنة ومتونها وأسانيدها.
- 9- الرحلة في طلب الحديث، وتجسم الرواة الأسفار والبعد عن الأهل والأوطان وتحمل المشاق في سبيل إلى الشيوخ لسماع رواياتهم ليتصل أحدهم بإسناد الشيخ بروايته عنه.

10- ما أثر عن المحدثين من مبدأ اختبار الشيخ للتلميذ، والتعرف على مدى أهليته لتلقي الحديث وتحمله، واختبار التلاميذ للشيخ وتعرفهم على مدى صلاحه للرواية عنه، وقبول نقله لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

11- ألفاظ أداء الرواة للحديث، ونقلهم له، وتنوعها بحسب اصطلاحاتهم واختلاف تلقيهم للحديث.

12- تعريف الحديث المقبول عند المحدثين: الصحيح والحسن وما اشتمل عليه من شروط للقبول أدل شيء على اهتمامهم بالإسناد.

الرد الثاني: يقول الدكتور: عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب⁸:

الرد على ما ادعاه المستشرقون من أنه كان سهلاً اختراع سند ولصقه بأي حديث، وأن الأحاديث لا تحتوي على معلومات موثوقة عن الفترة الأولى من الإسلام، وأن الحديث الشريف وجد نتيجة للتطور الديني والتاريخي والاجتماعي:

أ- إن الناظر في هذه الادعاءات من أهل الاختصاص يتعجب منها لأنها تدل على جهل عميق بعلم الحديث ورجاله وبتاريخ نقل السنة النبوية الشريفة وتوثيقها وتفاني الأمة الإسلامية في ذلك.

وإن الحقيقة تثبت عكس ما يقوله المستشرقون، لأن علماء الأمة وعلى رأسهم المحدثون كانوا متيقظين ليل نهار لرصد أي حديث يروى، ورصد تاريخ حياة كل من تصدى للرواية، ولهذا فقد قاموا بدراسة حياة عشرات الآلاف من الرواة لمعرفة درجة صدقهم أو كذبهم ولمعرفة درجة حفظهم، فكانوا أدق الناس وأعلمهم في نقل الأخبار ومعرفة درجات الرجال ومعرفة الأسانيد، ولهذا لم يجد الكذابون سوقاً لكذبهم إلا وكان العلماء المحدثون الصيارفة لهم بالمرصاد، يبينون زيف عملة الكذابين، فكيف يقال بعد ذلك: إنه كان من السهل اختراع سند ولصقه بأي حديث؟.

أضف إلى ذلك فقد كان للمحدثين طرق كثيرة في معرفة رواية كل محدث وتلامذته الذين روى عنه، فكيف كان يستطيع راو غير معروف بصحبته لمحدث ما أو بسماعه منه أن يدعي بأنه سمع من ذلك المحدث مع أن تلامذة ذلك المحدث معروفون؟ وكذلك فإن علماء الأمة الذين عاشوا في خير القرون قد بذلوا قصارى جهدهم في الذب عن الحديث النبوي الشريف، وقد رصد علماء الحديث في علوم الحديث ما يسمى بالحديث المقلوب، وعرفوا جيداً قلب الأسانيد مع الأحاديث وكانوا يمتحنون بعضهم بقلب أسانيد الأحاديث وذلك لمعرفة مدى حفظ الحافظ للحديث كما فعل علماء بغداد مع الإمام البخاري عندما امتحنوه. وإن قلب الأسانيد عن سهو وبغير قصد مع الأحاديث يعد عيباً كبيراً يطعن بضبط الراوي، لذا كان العلماء يعرفون الرواة الذين يقلبون الأسانيد في أحاديثهم ويحذرون الناس منهم.

ب- إن عناية علماء الحديث الشريف الجبارة بتوثيق السنة، والقواعد التي وضعوها لذلك في الراوي والمروي تثبت أن ما نقل إلينا لم يأت نتيجة للتطور التاريخي والديني والاجتماعي، فأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين هم أمناء هذه الأمة نقلوا لنا بصدق ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك فعل التابعون وتابعوهم إلى أن دون الحديث الشريف، فأتى لمفتر بعد ذلك أن يهدم هذا البناء العظيم

⁸ الرد على مزاعم المستشرقين جولد تسيهر ويسف شاخت ومن أيدهما من المستغربين، د. عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة، ص 18 وما بعدها.

من السنة النبوية الشريفة بكلمة باطلة مفتراة؟

فإذا كان الأمر كذلك فكيف يصح القول بأن الأمة الإسلامية كلها شاركت في الكذب على رسولها صلى الله عليه وسلم؟ ومعلوم أن الكذب في الإسلام من الكبائر، وأما الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم فهو من أكبر الكبائر؟ والكذب على نبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم لم يمارسه إلا الزنادقة أو الجهلة من الناس الذين فضحهم الله تعالى بين الأمة على أيدي جهابذة علماء الحديث، إذن إن كل ما نقل إلينا عنه صلى الله عليه وسلم وصححه العلماء موثوق به، وليس نتيجة للتطور التاريخي أو الديني أو الاجتماعي للأمة الذي يتحدث عنه هؤلاء المستشرقون. وأشير إلى مثال في دقة أهل الحديث وهو قول المدلس: (عن)، موهما أنه سمع الحديث، لأنه إذا قال: (حدثني أو أخبرني) عدُّ كاذباً، ولسقط من الرواية، ولذلك فهو لا يحاول أن يقول: (حدثني أو أخبرني)، ولكن يقول: (عن)، ولذلك نرى أن الإمام شعبة بن الحجاج يقول: كنت أتتبع قول قتادة، فإذا قال: (سمعت أو حدثني) أخذت عنه الحديث، وإذا قال: (عن) تركته.

الرد الثالث: يقول الدكتور خالد الدريس⁹:

لا يخلو أي بحث علمي من مسلمات أولية أو ما يسمى بالأفكار القبلية، لا يتكلم عليها الباحث ولا يصرح بها، ولكنه ينطلق منها في معالجة القضايا التي يتطرق لها في بحثه، والملاحظ أن "شاخت" كان في المسلمات الأولية في كتاباته عن السنة النبوية واقعاً تحت تأثير تحيز عنصري ضد العرب والمسلمين، وهو وإن لم يصرح بمسلماته بصورة جلية وواضحة -لغايات لا تخفى على اللبيب-، إلا أن ذلك يظهر بجلاء في حكمه القاطع والجازم على صفوة الأمة وأوثق علمائها بأنهم من الكذابين، وأنهم اختلقوا الأسانيد ونسبوا زوراً وافترأوا لرسولهم صلى الله عليه وسلم. ونتيجة لهذه المسلمة القاطعة التي تجذرت في وعيه، أشار إلى أن الأسانيد في كتب السنة، والتي تدل على اتصال الإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لا قيمة لها، بل هي كذب محض؛ لأن الأحاديث النبوية بكاملها لم توجد إلا في القرنين الثاني والثالث، فكيف يمكن أن نتصور وجود الأسانيد قبل وجود المتن؟ بل لا بد أن توجد المتن من قبل ثم تظهر الأسانيد لا العكس. ويقول في تقرير هذا الأمر: "إن أكبر جزء من أسانيد الأحاديث اعتباطي... وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين، كان يختار تلك الشخصيات ويضعها في الإسناد". وهو لا يعتقد بوجود أي حديث صحيح من أحاديث الأحكام المروية بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا الرأي القطعي - في نظره - يدل دلالة واضحة على أنه مبني على مسلمة أولية راسخة عنده، وهي أن علماء المسلمين قوم كذبة، كانوا يستبجحون الكذب ويستحلونه في أمور دينهم ولا يتورعون عنه، بل يفهم من كلامه أنهم مجمعون على ذلك، ومتواطئون عليه، ولو لم يكونوا كذلك في نظر "شاخت"؛ لما قرر نتيجته السابقة بعمومية وإطلاق ومن دون أي استثناءات أو قيود.

⁹ العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية، د. خالد بن منصور الدريس، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة، ص 17 وما بعدها.

وسنناقش هذه المسئلة بما فيها من تحيز عنصري بغيض، مما يدل على أن الرجل واقع تحت تأثير الأفكار السابقة عن المسلمين الكامنة في عقلية عوام الغربيين. ولكن قبل ذلك لابد من الإشارة إلى أن أهم صفة يجب أن يتحلى بها الباحث العلمي هي الإنصاف والعدل حتى مع خصومه ومخالفيه، والتي يعبر عنها المتخصصون في المنهج العلمي بالموضوعية. ويقرر أولئك العلماء أن أشد نواقض الموضوعية وقوادحها؛ التحيز ضد قومية أو فكرة أو مبدأ أو شخص أو مذهب.. إلخ. ويحذر المختصون في المنهج العلمي أي باحث من الوقوع في التحيز أو التعصب العنصري؛ لأن ذلك يتعارض مع مبدأ الموضوعية، وسأورد فيما يلي نصوصاً منتقاة لبعض المختصين تؤكد هذه الحقيقة التي أصبحت إحدى مسلمات المنهج العلمي بصورة مطلقة. ثم ذكر أقوالاً للمختصين في المنهجية ثم قال: إن نظرة سريعة إلى الكتب التي تكلمت على المنهجية العلمية وشروطها؛ تعطينا حكماً عاماً بأن الباحث المتحيز لا يمكن أن تكون نتائج بحثه علمية بأي حال من الأحوال.

وبعد أن ألمنا بموقف المختصين في منهجية البحث العلمي من التحيز والعنصرية، فلننظر ماذا فعل " شاخت "؟ لقد سلب من المسلمين أهم أخلاقهم الفاضلة، فنظر إليهم على أنهم مجموعة من الكذابين، فإن لم يكن هذا التعميم الذي أطلقه " شاخت " على علماء الدين المسلمين يعد تحيزاً عنصرياً وتعصباً مقبلاً، فليس في الدنيا من التعصب أو التحيز ما يستحق هذا الوصف.

إننا حين نقول: إن " شاخت " كان واقعاً تحت تأثير أفكار سابقة عنصرية تضر احتقاراً للعرب والمسلمين وكرهية لهم، فإن شاهدنا على ذلك أحكام الرجل نفسه ونتائج التي أعلنها، ويؤيد ذلك ما نعرفه من نصوص لبعض الغربيين أنفسهم من أن المستشرقين حين يبحثون في الإسلام والمسلمين، فإنهم يقومون بذلك من خلال ما ترسب في مخيلتهم الجماعية من صورة أسطورية خرافية مشوهة عن المسلمين، يقول الأستاذ محمد أسد - وهو في الأصل يهودي نمساوي قبل أن يسلم - مبيناً موقف الأوربيين من أهل الكتاب، والمستشرقين بصفة خاصة من الإسلام والمسلمين: "يعتقد الأوربيون أن تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع، ثم إن احتقارهم إلى حد بعيد أو قريب لكل ما ليس أوروبياً من أجناس الناس وشعوبهم قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدنية الغربية.

على أن هذا وحده لا يكفي لإظهار ما يكفه الأوربيون نحو الإسلام خاصة، وهنا - نعني فيما يتعلق بالإسلام - لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات، بل كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد، وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية. قد لا تقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن، ومبني على التفكير، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام، ويظهر في جميع بحوثهم كما لو أن الإسلام لا

يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته".

هذا النص النفيس يمثل شهادة مهمة لأن الأستاذ محمد أسد ينقل واقعاً خبره وعرفه قبل إسلامه، حيث نشأ وتربى في " النمسا " ذات الثقافة الألمانية، وقد تقدم معنا أن " شاخت " نشأ في ألمانيا أيضاً، أضف إلى أنهما ولدا في بدايات القرن العشرين الميلادي، مما يجعل النص الأنف في غاية الأهمية، ولاسيما أنه يوضح لنا بصورة جلية الرؤية المتحيزة للجيل الذي نشأ فيه "شاخت"، وغيره من الأوربيين تجاه الإسلام والمسلمين.

ويؤكد الأمر بصورة جلية لا تقل أهمية عما سبق قول "انجمار كارلسون"، وهو أحد أبرز المفكرين الاستراتيجيين في أوروبا: ((نحن نفتقد الإمكانيات الموضوعية للنظر إلى الأصولية الإسلامية نظرة معقولة، وتناولها بأسلوب نقدي طبيعي، ولذا نعتبر الغرب الحديث مرادفاً للعقل، بينما نرى في الشرق عالماً متخلفاً يمشي على حافة الجنون، ويستحيل عليه مشاركتنا في الحوار والسجال على قدم المساواة ... إن صورة المسلم مطبوعة في وعينا على هذا النحو المخيف ... »).

ويشير باحث غربي آخر اسمه " جيمس وولترز " في دراسة له عن مواقف الغربيين من المسلمين قبل الحروب الصليبية أن أوربا عاشت حالة من عدم المبالاة تجاه الإسلام والمسلمين مدة من الزمن، ثم تحول ذلك الموقف إلى نوع من العداء السياسي ما بين (710 - 1100 م) ، ثم تحول إلى عداء ديني مع مواجهة عسكرية في بعض المراحل، ثم يقرر هذا الباحث بعد ذلك: "إن المترسخ في أذهان الأوروبيين عن الإسلام هو صورة قاتمة، وذلك بسبب العداء الذي نكاه موقف الباباوات من الإسلام منذ اندلاع الحروب الصليبية، وإلى أيام استعمار الغرب للعالم الإسلامي الذي لم ينته إلا منذ بضعة عقود".

إن مضمون النصوص السالفة أصبح اليوم حقيقة علمية أكدها عدد من المتخصصين في الاستشراق، وفي ذلك دلالة على ضخامة حجم التشويه المتعمد، في تصورات الغربيين، وبخاصة المستشرقون منهم عن الإسلام.

إن مُسَلِّمة " شاخت " التي بنى عليها نظريته في السنة النبوية، والدالة على أن علماء الحديث والفقهاء من المسلمين كانوا لا يتورعون عن الكذب في نسبة أقوال لرسولهم صلى الله عليه وسلم؛ لا يمكن للعقل أن يقبلها؛ لأنها خرافية وخيالية إلى حد بعيد للأسباب التالية:

1 - هذه المسَلِّمة مصادمة للطبيعة البشرية؛ وذلك لأن الصدق هو الأصل في معاملات البشر، ولذا فهو سهل وطبيعي، وراسخ الأركان، وأما الكذب فمهمزوز مزعزع، معرض للهجوم باستمرار، ولا قوة فيه ولا خير، وهو قرين لكثير من الأمراض الاجتماعية كالسرقة والخوف والجبن والذل، وهو مضاد لروح التعاون الجماعي التي هي أساس قيام أي مجتمع.

ولا يمكن لمجتمع مهما بلغ انحرافه أن يتواطأ كل من فيه من رجال ونساء، ولأجيال متعاقبة، وفي بلدان مختلفة، ومن أقاليم متعددة على الكذب على زعيمهم وقوتهم، وقائدهم الذي يحبونه ويحترمونه.

ومما يدل على أن مُسَلِّمة " شاخت " غير مقبولة عقلاً أن أحد مشاهير الغربيين، ويدعى " توماس كارليل " كتب مخاطباً قومه عاتباً عليهم في زعمهم أن المسلمين كذبة، فقال: "لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يُظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداع ومزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ... أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها الملايين الفاتنة الحصر أكذوبة وخدعة؟! أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بُله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث".

2 - إن القرآن وهو كتاب المسلمين المقدس يقف من الكذب موقفاً شديداً جداً، حيث يجعل من كذب في الدين مستحقاً للإثم المبين قال تعالى { أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا } (النساء: 50) ، كما أنه يجعله من صفات الكافرين قال تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ } (المائدة: 103) ، وأن الكاذب لا يفلح قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ } (النحل: 116) ، وأنه من أظلم الظلم قال تعالى { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ } (الأنعام: 144) . والخالق عز وجل هو القائل: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا } (الحشر: 7) ، فاتباع السنة من دين الله، فالكذب فيها كذب على الله، فموانع الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم عند المسلمين قوية؛ لأنها تستند إلى نصوص قرآنية كثيرة جداً.

3 - إن الواقع التاريخي للمسلمين في فتوحاتهم ومعاملتهم مع أهل الأديان الأخرى يدل على تحليهم بخصال الصدق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الأمور لا تتسق مع أخلاق الكذابين.

فكيف يريدنا " شاخت " أن نصدق أن أولئك العلماء الذين لم يُطعن عليهم في نزاهتهم الدينية، وتقواهم، ووفائهم بالعهود، وصدق تدينهم، كانوا يسكتون على كذب بعضهم البعض، ولماذا لا نجد في كتب الجرح والتعديل أو التاريخ والسير وصفهم لبعضهم البعض بالوضع والكذب، إذا كانت الحال كما يزعم " شاخت "؟

4 - إذا كان المحدثون والفقهاء تعمدوا الوضع والكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم، فلماذا إذن اهتموا بنقد الأحاديث؟، ولماذا تعبوا كل هذا التعب في نقد الرواة والتصنيف في علم الجرح والتعديل والعلل، مادام كله كذباً؟!

5 - لو كان الأمر كما يزعم " شاخت " أن علماء المسلمين كانوا إذا احتاجوا في مسألة إلى دليل وضعوا سنداً لأحد آراء الفقهاء، ونسبوه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلماذا لم يضعوا حديثاً بإسناد صحيح في حجية القياس، وهو المصدر الرابع من مصادر التشريع الإسلامي، مع أن الحاجة ماسة لوجود مثل ذلك الحديث بديلاً لحديث معاذ رضي الله عنه الذي ضعفه كثير من المحدثين؟ ولماذا لم يستطع الخليفة المأمون مع كل ما أوتي من قوة ونفوذ وسلطة واسعة أن يأتي بحديث واحد موضوع في مسألة خلق القرآن مع تحدي الإمام أحمد له وللمعتزلة بذلك؟

إن الحقيقة التي نتحدث عن نفسها هنا هي أنه لم يكن من الممكن أن يوضع حديث على رسوله صلى الله عليه وسلم، ويمر من غير ملاحظة العلماء له. إن تحيز " شاخت " واستسلامه الكامل للتعصب العنصري ضد المسلمين، أوقعه في مصادمة لأهم أصل من أصول المنهجي العلمي وهو الموضوعية.

المطلب الثاني: الرد على مزاعم المستشرقين ومن أيدهم فيما يتعلق بإهمال نقد المتن عند المحدثين:

الرد الأول: يقول الدكتور عبد الله الخطيب¹⁰:

إن أوهى شبهة تمسك بها المستشرقون هي زعمهم بأن المحدثين المسلمين لم يعنوا بنقد المتن، ويدرك من لديه أدنى اطلاع على كتب علوم الحديث ومصطلحه أن هذا الادعاء ما هو إلا محض كذب واقتراء، وإن أحسنا الظن بمن قال بهذا الرأي فنقول: إنه ينم عن جهله العميق بعلم مصطلح الحديث. ومن الأدلة على اهتمام علمائنا السابقين بنقد السند والتمن على حد سواء هي النقاط التالية:

1- كان الصحابة رضوان الله عليهم ينتقد بعضهم مضمون روايات بعض، فمثلاً انتقدت عائشة رضي الله عنها مضمون روايات بعض الصحابة وكذلك تعرضت بعض رواياتها للنقد من بعض الصحابة الآخرين. وقد ألف الإمام الزركشي (794 هـ) كتاباً جمع فيه الروايات التي انتقدت فيها عائشة رضي الله عنها مرويات بعض الصحابة.

2- لقد أولى نقد المتن عناية كبيرة في علم العلل؛ الذي هو رأس علم الدراية وهو علم متابعة الثقات في رواياتهم، فالعلة سبب غامض يدل على وهم الراوي سواء أكان الوهم في السند أم المتن. وموضوع هذا العلم الحديث الذي ظاهر إسناده الصحة، إلا أن العلماء يضعفون منته لأن فيه نكارة أو شذوذاً أو اضطراباً أو غرابة، وإن قول العلماء عن حديث إنه صحيح الإسناد أو حسن الإسناد، لا يعني أبداً أن المتن صحيح أو حسن، وذلك لشذوذ أو علة فيه. وقد يصح المتن ولا يصح السند لورود دلائل على صحة المتن من طرق أخرى، فمعرفة صحة الحديث لا تعتمد فقط على إسناده بل تعتمد على معرفة كبيرة بالحديث ومتونه، وهذا يدلنا على المنهج الموضوعي الشامل لدى المحدثين في النقد، فعلم العلل إذن يدخل في النقد الموضوعي العميق للحديث سنداً ومتناً.

3- عندما قسم علماء الحديث علم مصطلح الحديث قسموه إلى قسمين: علم الحديث رواية وعلم الحديث دراية، وعرفوا الثاني بأنه: علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والتمن من حيث القبول والرد، وهذا يعني أن هذا العلم وضع قوانين ليضبط بها السند والتمن معاً.

4- ذكر العلماء في تعريف الصحيح والحسن شروطاً عائدة للسند، وهناك شرطان أساسيان لقبول الحديث ويرجعان للسند والتمن معاً وهما: سلامته من الشذوذ، وسلامته من العلة القادحة. ونجدهم عندما يشرحون التعريف يقولون: إن الشذوذ قسمان: شذوذ في السند، وشذوذ في المتن، وأكثر ما يكون الشذوذ في المتن.

¹⁰ الرد على مزاعم المستشرقين جولد تسيهر ويسف شاخت ومن أيدهما من المستغربين، د. عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب ص24 وما بعدها.

وكذلك العلة قسمان: علة في السند، وعلة في المتن.
5- الهدف من نقد السند هو الوصول إلى نقد المتن وخدمته، وكما نقد المحدثون السند واهتموا به واشترطوا سلامته من وجود الوضاعين والكذابين، فكذلك وضع العلماء شروطاً لقبول المتن، ووضعوا علامات تدل على الوضع فيه دون النظر إلى سنده. ومن العلامات على الوضع في المتن: مخالفة الحديث للحس أو للمقبول، أو لصريح القرآن، أو لصريح السنة الثابتة المشهورة، أو كونه ركيك الألفاظ، سمج المعاني، وما إلى ذلك. ويعد الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه: المنار المنيف في الصحيح والضعيف أفضل من توسع في موضوع الكلام عن علامات الوضع في المتن وعن القواعد والقرائن التي تدل على الكذب في الحديث نفسه دون النظر إلى سنده، فذكر أربعاً وأربعين قاعدة ومثل لها بمئتين وثلاثة وسبعين حديثاً، وبيّن وجه بطلانها من مجرد نقض المتن ولم يعرج على نقد السند في شيء.

وما أروع ما عمله الإمام مسلم في كتابه التمييز حيث ذكر لنا أمثلة عديدة عن خطأ الرواة في السند والمتن أو في أحدهما.
- الأسباب التي دعت إلى إعطاء نقد السند والرجال اهتماماً أكبر من نقد المتن: إن هناك أسباباً عديدة دعت العلماء للاهتمام بالسند أولاً قبل المتن، ومن هذه الأسباب:

- 1- إن رجال الحديث هم الأساس، فإذا ضعف الأساس ضعف البنيان كله، ولأجل ذلك كان المحدثون يصرفون كبير اهتمامهم إلى دراسة الرجال الحاملين للروايات ينتقدونهم ويسألون أهل الخبرة عنهم، وقد وصلوا إلى درجة من اليقين بأن الأحاديث لا يستطيع أن يعثب بها عابث فيعمى أمرها على المسلمين.
- 2- إن نقد السند يسمح بنقد موضوعي مبني على معيار دقيق بسبب الرجوع إلى تراجم الرواة التي تعطينا فكرة عنهم، وبذلك تعرف درجة صحة الحديث، والمحدثون يقولون: إنهم كانوا قادرين بمعرفة ترجمة الراوي على تكوين فكرة واضحة عن درجة وثوق روايته وعن علمه.
- 3- إن فتح الباب على مصراعيه في نقد المتن قد يفتح المجال أمام إصدار أحكام غير موضوعية وذلك لأن النص قد يؤول بوجه عديدة، وهذا يؤدي إلى اعتبار صحة الحديث مبنية على التأويل الذي نقدمه، وفي ذلك من الخطورة ما لا يخفى على أحد. ورفض الحديث ذي الإسناد الصحيح بناء على عدم فهمنا لمتنه أمر غير علمي.

الرد الثاني: مما ذكره الدكتور نور الدين عتر¹¹:

- 1- أن المحدثين قد احتاطوا من النظرة الشكلية حيث قرروا قاعدة اتفقوا عليها وهي أنه لا تلازم بين صحة السند وصحة المتن، بالعكس أيضاً فإنه لا تلازم بين ضعف السند وضعف المتن، وهذا واضح في قواعد هذا العلم مسلم به لا يحتاج إلى الاستكثار من النقول والتطويل بها. وهو يدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن

11 منهج النقد في علوم الحديث، د. نور الدين عتر، دار الفكر، ط3/1401هـ، ص467.

المحدثين النقاد قد احتاطوا لكل احتمال وأعدوا له العدة العلمية في منهج موضوعي متعمق بعيد غاية البعد عن الشكلية والانخداع بالمظاهر.

2- أن نقد الأسانيد الذي عابه العائبون وسموه شكليا يتصل اتصالا وثيقا بنقد المتن، لأن إثبات ثقة الرواة وكونهم جديرين بالثقة ليس عملا شكليا سطحيا، بل إنه مرتبط بالمتن ارتباطا قويا، وذلك لأن توثيق الراوي لا يثبت بمجرد عدالته وصدقه بل لا بد من اختبار مروياته بعرضها على روايات الثقات، فإن وجدنا رواياته موافقة ولو من حيث المعنى لرواياتهم أو موافقة لها في الأغلب والمخالفة نادرة عرفنا حينئذ كونه ضابطا ثبتا.

الرد الثالث: يقول الباحث أحمد محمد بوقرين¹²:

الشبهة التاسعة:

ومن شبهاتهم أيضا أن نقد المحدثين اقتصر على نقد الإسناد ولم يشمل نقد المتن يقول غاستون ويت: "وقد درس رجال الحديث السنة بإتقان إلا أن تلك الدراسة كانت موجهة إلى السند ومعرفة الرجال والتقائم وسماع بعضهم من بعض" ثم قال: "لقد نقل لنا الرواة حديث الرسول مشافهة ثم جمعه الحُفَاط ودوَّنوه إلا أن هؤلاء لم ينقدوا المتن لذلك لسنا متأكدين من أن الحديث قد وصلنا كما هو عن رسول الله من غير أن يضيف إليه الرواة شيئا عن حسن نية في أثناء روايتهم الحديث".

الرد على هذه الشبهة:

لقد اهتم علماء الحديث اهتماما بالغا بدراسة متن الحديث واستوفوا تلك الدراسة وبذلوا قصارى جهدهم في العناية به بحيث لا يوجد مزيد على ما قدموه. ولقد كان الهدف الذي يسعون إليه من دراسة الإسناد ونقده وهو تمييز صحيح الحديث من ضعيفة وحماية السنة من العبث والكيد كان ذلك مرتبطا ارتباطا وثيقا بنقد المتن، ومن قواعدهم أن توثيق الراوي لا يتم إلا بثبوت عدالته وضبطه، وهذا الأخير إنما يعرف بمقارنة مرويات الراوي مع مرويات الثقات الآخرين.

ومن الثابت الذي لا جدال فيه عند المحدثين أن صحة إسناد الحديث لا تعني بالضرورة صحة الحديث لأن من شروط الصحيح ألا يكون شاذا ولا معللا والشذوذ والعلّة يكونان في السند كما يكونان في المتن فقد يصح إسناد حديث ما ويكون في متنه علة قاذحة تقدر في صحته وهكذا الشذوذ ولذا لم تكن دراستهم قاصرة على الأسانيد وإنما بحثوا في علل المتن وشذوذها وجمعت أبحاثهم هذه في علل المتن والأسانيد في مصنفاتهم من كتب العلل وهي كثيرة.

ومن أجل ذلك نشأت علوم لا تكتفي بدراسة الإسناد بل تعني بدراسة الإسناد والمتن جميعا فمن ذلك: الحديث المقلوب، والمضطرب، والمدرج، والمعلل، والمصحف، والموضوع، وزيادة الثقة.

كما أنشئت علوم تتعلق بدراسة المتن خاصة من ذلك غريب الحديث، أسباب وروده، ناسخه ومنسوخه، مشكله، ومحكمه.

وفي هذا بذل المحدثون جهدا لا نظير له ولا مثيل ومن جهودهم في دراسة المتن ما

12 الرد على شبهات المستشرقين ومن شابعهم من المعاصرين حول السنة، أحمد محمد بوقرين

وضعوه من علامات وضوابط يعرف بها وضع الحديث من غير رجوع إلى سنده من ذلك:

1- ركاكة اللفظ في المروي: فيدرك من له إلمام باللغة ومعرفتها أن ذلك لا يمكن أن يكون من كلام النبي صلى الله عليه وسلم إذا صرح الراوي بأنه لفظه وإلا فمدار الركة على المعنى وإن لم ينضم إليها ركاكة اللفظ.

2- مخالفة الحديث لنص القرآن أو السنة المتواترة: فما يخالف القرآن كحديث: "مقدار الدنيا وإنها ... آلاف سنة" فهو مخالف لقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ كَافٍ فِيَّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) (34). وما يخالف السنة كأحاديث مدح من اسمه محمد أو أحمد، وأن كل من يسمى بهذه الأسماء لا يدخل النار؛ والنار لا يجار منها بالأسماء والألقاب وإنما بالإيمان والعمل الصالح

3- ما اشتمل على مجازفات وإفراط في الثواب العظيم على الأمر الصغير، أو وعيد عظيم على فعل يسير: كحديث: من قال: لا إله إلا الله، خلق الله من تلك الكلمة طائراً له

يقول الدكتور صبحي الصالح صاحب كتاب علوم الحديث و مصطلحه مؤكداً عدم تفرقة المحدثين بين السند والمتن في حكمهم على الحديث: "على أننا لا نرتكب الحماقة التي لا يزال المستشرقون، وتلامذتهم المخدوعون بعلمهم" الغزير" يرتكبونها كلما عرضوا للحديث النبوي، إذ يفصلون بين السند والمتن مثلما يفصل بين خصمين لا يلتقيان أو ضرتين لا تجتمعان، فمقاييس المحدثين في السند لا تفصل عن مقاييسهم في المتن إلا على سبيل التوضيح والتبويب والتقسيم، وإلا فالغالب على السند الصحيح أن ينتهي بالمتن الصحيح، والغالب على المتن المعقول المنطقي الذي لا يخالف الحس أن يرد عن طريق صحيح".

الخاتمة:

وهذه أهم نتائج البحث

1- كانت مناهج المحدثين في التصحيح والتضعيف مثلاً ونموذجاً على البحث العلمي الدقيق , الذي يقوم على الأمانة والنزاهة العلمية , وعلى ضبط قواعد البحث ودقتها وسلامتها من العلل وإتباع الهوى.

2- أن الأمة الإسلامية قد غُنِيَتْ بصيانة الحديث النبوي منذ أول عهدها بالرواية، وأن العلماء لم يدخروا جهداً في سبيل هذا الأمر.

3- أن قواعد علوم الحديث قواعد نقد شاملة تدرس جوانب الحديث كلها دراسة تامة دقيقة.

5- أن جهود المحدثين في حقل تطبيق المنهج النقدي قد بلغت الغاية في الوصول إلى هدف صيانة الحديث النبوي وهذه تصانيفهم الكثيرة في أنواع الحديث ما اختص منها بالصحيح، أو الضعيف , أو اختص بالموضوع، أو بنوع مستقل من علوم الحديث

الأخرى كالمرسل والمدرج، وغيرها، وهذه التصانيف برهان عملي على مدى ما بلغوه من العناية في تطبيق هذا المنهج حتى أدّوا إلينا تراث النبوة صافياً نقياً.

5- انتقادات المستشرقين لمنهج النقد عند المحدثين مخالفة تماماً لمنهجية البحث العلمي التي يدعونها.

المصادر والمراجع

- محاضرات في منهج النقد، د. حميد قوفي.
- مقدمة المعلمي لكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- منهج النقد عند المحدثين نشأته وتاريخه، د. محمد مصطفى الأعظمي، مكتبة الكوثر، ط3/1410هـ.
- نقد المتن عند الإمام النسائي في السنن الكبرى، د. محمد مصلح الزعبي، أمواج - عمان، ط1/.
- دراسات في منهج النقد عند المحدثين، د. محمد علي قاسم العمري، دار النفائس - الأردن، ص15.
- المنهاج العلمي للتصحيح والتضعيف، د. محمد بنكيران، موقع: منصة محمد السادس للحديث الشريف.
- تكوين الملكة الحديثية، د. سامح عبد الله عبد القوي متولي، دار الأوراق - القاهرة.
- آراء المستشرق جوزيف شاخت حول حجية السنة النبوية من خلال كتابه "أصول الشريعة المحمدية"، بحث مكمل لنيل درجة العالمية الماجستير، إعداد: محمد إبراهيم محمد نور عبد اللطيف الخليفة، إشراف: الدكتور عبد الله ضيف الله الرحيلي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1417هـ/1997م.
- الرد على مزاعم المستشرقين جولد تسيهر ويسف شاخت ومن أيدهما من المستغربين، د. عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة.
- العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية، د. خالد بن منصور الدريس، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة.
- منهج النقد في علوم الحديث، د. نور الدين عتر، دار الفكر، ط3/1401هـ.
- الرد على شبهات المستشرقين و من شايعهم من المعاصرين حول السنة، أحمد محمد بوقرين.